«سيريانا» لستيفن غاهان كاتب السيناريوهات الرصينة:

عن شركات النفط ومصائر العمال والأمراء والحيتان في العالم العربي

ابراهيم درويش*

■ فيلم سريانا (اخراج ستيفن غاهان) يستحق المشاهدة لاسباب عدة، لان فيه الكثير من الحقيقة ولانه اول فيلم يتحدث فيه الممثلون لغة عربية صحيحة، ليست لهجة لبنانية او مغربية او كلمات غوغائية لا معنى لها، هنا ممثلون يتحدثون العربية بشكل جيد الا في بعض الحالات التي يتعسر فيها مثل هذا الحديث.. اما الجانب الاخر من الفيلم وهو ان كاتب السيناريو الذي هو المخرج قام ببحث جيد قبل اعداد الفيلم، ولم يعتمد على خبرات كتاب القصص الشعبية التي تهتم بالنمطيات وتعيد انتاجها، فقد التقى المخرج/ كاتب السيناريو بالعديد من الشخصيات المرتبطة بعالم النفط والتجسس، وحركة الفيلم بين اكثر من مكان في العالم تدل على معرفة المخرج بتعقيدات لعبة النفط / السياسة والمصالح/ فهناك ربط واضح بين تكساس وجنيف، بيروت، والخليج العربي، العمال الاسيويون والباكستان وحتى بحر قزوين وهذا العالم المتداخل هو عالم ملغز وسري ومليء بالظلال وشعار الفيلم واضح «كل شيء متصل» يقود الى الاخر.

ستيفن غاهان معروف بكتابة السيناريوهات الرصينة فهو كاتب سيناريو فيلم «ترافيك» من اخراج ستيفن سودربيرغ (2000)، الفيلم الذي يتحدث عن عالم المخدرات غير الشرعي. وخلال بحثه في عالم تداخل المخدرات في واشنطن انتبه غراهام لإدمان امريكي آخر كما اعلن جورج بوش عن ذلك في الاونة الاخيرة وهو: النفط، وكان نتاج البحث فيلم، متعدد الاتجاهات والطبقات، فيلم مليء بالغموض والتشوش، فيلم لا بداية له ولا نهاية، فيه شخصيات محورية وليس ابطالا، ولكن السيناريو يخوض في عدد من القصص داخله، وهي قصص متداخلة كلها عن المصالح الامريكية وعن رؤية امريكا في مرحلة ما بعد ايلول (سبتمبر) 2001. في بعض لحظات الفيلم هناك ظلال من كتابات عبد الرحمن منيف، عن مدن الملح، فـ«سريانا» هو عن مملكة او دولة نفطية خيالية في الخليج، يحكمها شيخ تدعمه الولايات المتحدة، وشركات النفط الامريكية المتعطشة للنفط والسلطة والثروة ضد امير متنور، متعلم في جامعات امريكا الكبرى ويريد الاصلاح الحقيقي لبلاده، بل تقوم بتدبير عملية اغتياله بالريموت كونترول من مركز الاستخبارات الامريكية في فرجينيا.

في مركز الفيلم شخصية بوب بارنز (جورج كلوني وهو منتج الفيلم ايضا)، عميل للمخابرات الامريكية عجوز نوعا ما، بلحية غير مشذبة وكرش صغير مترهل، يبدو في الطريقة التي يتحرك بها ببطء، والصورة مبنية على كتاب لعميل الاستخبارات الامريكية السابق روبرت باير «ان لا ترى شرا» الذي كشف فيه الكثير عن اسرار الاستخبارات الامريكية، وباير نفسه كان عميلا في المنطقة العربية، وكانت آخر مهمة له شمال العراق عندما اكتشفت مخابرات صدام وجود محطة للمخابرات الامريكية تخطط مع معارضين عراقيين لانقلاب، وذلك عام 1996. بوب يقف على خط التضاد مع سياسة حكومة بلاده، فعندما يحدث خطأ في عملية في ايران وتتسرب صواريخ ستينغر لأيدي الاشخاص الخطأ يبتعد رؤساء بوب في «سي آي ايه» عنه وشيئا فشيئا يكتشف بوب نوايا حكومة بلاده الحقيقية ويشعر ان حكومته خانته.

في «سريانا» الارهابيون ليسوا جماعة القاعدة او الناشطين الاسلاميين الذين ينفذون عمليات ضد المصالح الامريكية، ولكن الارهاب قد يكون ارهاب دولة، عندما تتعارض المصالح الامريكية في المنطقة مع تطلعات حكام متنورين مثل الامير ناصر، وبعملية تفجير عن بعد «ريموت كونترول» تتخلص المخابرات الامريكية ومعها الشركات الامريكية العملاقة مثل «كونيكس» من احد اشد معارضيها، ولا يهم مسؤول المخابرات التضحية باحد اهم عملائه في المنطقة ليكون احد ضحايا العملية، في المحاولة الاخيرة لتحذير الامير الذي كان يسير في موكب مع مستشاره الامريكي، وزوجته وابنائه باتجاه القصر لكي يسيطر عليه في الوقت الذي كان فيه شقيقه الامير الذي عينه والده خلفا له يحتفل مع الشركة العملاقة في مركزها في امريكا باحد رجالات البترول الامريكيين الذي رشح لجائزة رجل العام. «سريانا»، الذي قد يكون مصطلحا يستخدمه خبراء الشؤون الدولية في واشنطن في معاهد البحث المؤثرة «ثينك تانكس» لاعادة تشكيل المنطقة العربية ودراسة السيناريوهات المناسبة لتحقيق هذا، وكما يشير الفيلم فان صناع السياسة مع عمالقة النفط الامريكيين يحاولون بطريقة او بأخرى صناعة «دولة بالشكل الذي يخدم مصالحهم».

ويذكر فيلم «سيريانا» بنوع من الافلام الذي تأسس في امريكا وايطاليا في ستينات القرن الماضي، وظهر واضحا في افلام جون فرانكينهيمر الامريكي والايطالي فرانشيسكو روزي، والاخير في فيلمه عن انريكو ماتي، المدير اليساري للشركة النفطية المملوكة من قبل الدولة الذي قتل في حادث غامض في تحطم طائرته عام 1962. وقد استخدم ماتي في فيلمه، اللقطات الاستعادية التي عكست بالضرورة غموض وتعقيدات الفيلم نفسه.

ما يميز غاهان انه يقدم اكثر من شخصية في نفس الوقت، العملاء، والامراء في قصورهم الصحراوية، او في قصورهم الفارهة في جنوب اسبانيا، مدراء الشركات العملاقة، في مكاتبهم الكبيرة التي تعكس صورة الحلم الامريكي، وفي اروقة المؤتمرات في سويسرا، العمال الاجانب، الذين يعيش في اكواخ من الحديد «المكعبات» تحت الشمس الحارقة، يحلمون بالجبال المغمورة بالثلوج في الباكستان ويعاملون بقسوة من ارباب العمل ومن الشرطة، مع انهم هم الذين يقومون بتشغيل صناعة النفط في المنطقة، ولان الفيلم يتحرك بسرعة من مكان الى اخر، فالمخرج وكاتب السيناريو يطلبان منا الصبر حتى يتم تفكيك عناصر الحبكة المتعددة الاتجاهات، التي تتقاطع في النهاية باحتفالات رجال النفط «القطط السمان» الذين لديهم هم الاخرون العابهم وطرقهم لابتزاز بعضهم البعض، الامير الجديد الذي يتوج ويرحب به في داخل نادي اصحاب الشركات، والاخ الطامح للتغيير الذي يجد له القاعدة ويبدو انه يواجه المستحيل في طريقه لحتفه، والصورة التي يقدمها لنا الفيلم لا تختلف عن اية عملية اغتيال سياسي حيث نحبس انفاسنا، ونتمنى ان ينجح عميل المخابرات الغاضب على مرؤوسيه والذي يشعر بالخديعة لانقاذ الامير، والشابان الباكستانيان اللذان تدربا في مدرسة قرآنية في العملية الاخيرة التي تذكر بالطريقة التي نفذ بها مهاجمون تابعون للقاعدة البارجة الحربية «كول» قرب خليج عدن عام 2000.

في حركة الفيلم تتقاطع حيوات شخصيات خمسة معا بوب «جورج كلوني» العميل المجرب في الشرق الاوسط، بينت هوليدي (جيفري رايت) محام اسود، مشهور يملك شركة محاماة في واشنطن تتعامل مع رجال النفط، بريان وودمان (مات ديمون) محلل اقتصادي في شؤون النفط طامح يعمل مستشاراً لشركة كبيرة في جنيف، الامير ناصر (الكسندر سيدك)، نجل الامير العجوز والذي تلقى تعليمه في اوكسفورد، وسليم احمد خان (شهيد احمد) عامل باكستاني في الخليج. وحياة الابطال هؤلاء تتأثر بطريقة او بأخرى بعمليات الكولسة ومحاولات السيطرة على الصناعة النفطية في المنطقة، وكل واحد منهم اما يتم التنازل عنه، خداعه، او قتله، خاصة بعد قرار شركتي نفط عملاقتين بالاندماج في محاولة لتعزيز مواقعهما وسيطرتهما على النفط العربي لمواجهة التأثير الصيني والطلب الصيني المتزايد على النفط. وهنا يتم ارسال بوب في مهمة اغتيال لاحباط اي محاولة يقوم بها الامير ناصر، لتحسين اوضاع شعبه، والتخلي عن الاعتماد الدائم على امريكا، اي التأثير على مصالحها في المنطقة، اما شهيد الذي يجد نفسه بلا عمل بعد قيام صاحب مصفاة النفط الجديدة بالتخلي عن خدماته، رهينة في يد جماعة اسلامية لها خططها فيما يتعلق بامريكا. برايان، المحلل الاقتصادي الطامح والذي فقد ابنه ابن السادسة في حمام سباحة تابع للامير في اسبانيا، يعمل مع الامير ناصر لتحقيق الديمقراطية في الامارة، وتأكيد اعتمادها على مصادر اخرى غير النفط الذي قد ينتهي في اي وقت، تاركا الامارة رحمة لظروف الصحراء التي تخلصت منها باكتشاف الذهب الاسود. اما المحامي الاسود، فيجد نفسه في شرك بين شركات نفط ومدراء قساة ووزارة العدل، ومن هنا يقوم بالتضحية بعدد من الاشخاص ويرميهم كضحايا في عرين الاسد.

في خلفية الفيلم فكرة ان ما يصلح لـ «بلدنا» يصلح للاخرين، حتى لو كان هذا باسم الفساد. في الفيلم اداء عال، واخلاقية خاصة لكل شخصية، في داخل صناعة النفط، شخصيات لها تفسيرها الخاص للاخلاقية، اخلاقية العمل واخلاقية التنافس، وما يميز هذا الفيلم اكثر هو حجم التفاصيل والمعلومات الواردة فيه، نعرف ان النزاع والتغييرات في الامارة تحدث على خلفية هجمات ايلول (سبتمبر) 2001، وعلى خلفية احتلال العراق وتغيير النظام فيه، حيث يخبر احد المؤيدين للشيخ ناصر انه مهما حاول التغيير، فهناك في المنطقة مئة الف جندي امريكي. وهناك مشاهد تعذيب مثيرة، مثل مشهد تعذيب بارنز، على يد موساوي «مارك سترونغ»، حيث يقوم بقلع اظافر بارنز، الذي يعيش حالة من التشوش، بين ولائه للمخابرات وعمله ووطنه وحسه بالخديعة وبأنه رمي للذئاب. ولكن احسن ما في الفيلم هو محاولته توضيح ان لم تكن فهم دوافع الجهاديين الاسلاميين، في المدارس الدينية، حيث يقدم خطابهم الذي قد تتفق معه او تختلف، ولكنه يعرض الخطاب دون غوغائية او محاولة لفرض وجهة النظر الهوليوودية، نلاحق هذا الخطاب في الطريقة التي تحول فيها شهيد من عامل، مفصول من العمل، يتلقى الاهانة والضرب على باب دائرة الهجرة والجنسية الى انتحاري، ومشهد الرحلة الاخيرة لشهيد وصديقه في القارب لضرب حاملة النفط، تم بجمالية عالية، وهو لم يقدم لنا صورة الدمار ولكن القارب وهو يقترب من هدفه، ثم تتحرك الكاميرا لتغطي على المشهد بسحابة بيضاء، وبعدها يعود براين، الذي نجا من محاولة اغتيال الامير ناصر الى زوجته التي اتهمته بالمتاجرة بصغيرها مقابل طموحاته الخاصة وتحت ستار تحقيق الديمقراطية. «سيريانا» في تقديمه للجانب الاخر من اللعبة، التي هي عن «سياسة الواقع» يقدم مفهوما اخر للاشرار، في اللعبة الازلية الهوليوودية، «الاخيار/ الامريكان» و «الاشرار/ الجهاديون، العرب او الشيوعيون، الهنود الحمر، السود..» فهنا مسؤولو المخابرات واعضاء وزارة العدل ورجال النفط وشركاتهم العملاقة هم ايضا اشرار، وكل بطريقته، كاتب السيناريو هنا يقوم بعملية تدوير لمفهوم الشر، فاذا كان الانتحاريون يزرعون سيارات مفخخة تقتل المدنيين، فالمخابرات ومعها اللوبي النفطي، لديه القابلية للعب الدور نفسه، عندما يتعلق الامر بالتخلص من منافس لهم او الدفاع عن مصالحهم /مصالح امريكا، وان اقتضى الامر التضحية برجلهم وبالابرياء الذين وجدوا في المكان. في الوقت الذي كانت فيه سيارة الامير تحترق، كان المسؤول الذي اعطى امره لتنفيذ الاغتيال، يتلقى التهاني على التخلص من الخصم، الامير المتنور في هذه الحالة. الصورة في سريانا جميلة، حيث تنقل تنوعات جغرافية وسكانية خاصة، العمال الاسيويون يلعبون الكريكيت على خلفية الاعمدة والمنشآت النفطية، على الرمل وحفاة، البذخ في قصور الامير، واليخوت التي تضيء المتوسط، ورجال الشركات العملاقة في مكاتبهم واجتماعاتهم، ارقامهم وتحليلاتهم وخرائطهم، وبيروت في وجهها الجميل، ووجهها الخلفي من المسلحين الذين يحرسون المناطق التي يسيطر عليها حزب الله، والامير في رحلات الصيد في الصحراء الممتدة بلا نهاية. كذلك المدرسة القرآنية التي تحضر احيانا في افلام سابقة بصورة اطفال يقرأون القرآن من الالواح باصوات غير منسجمة ومزعجة، قدمت في «سريانا» باطار اخر، هناك نظام، ودروس ومحاضرات يلقيها عليهم محمد الشيخ عجيزة (عمرو واكد)، ولديهم وقت للعب، والقراءة والصلاة، وقراءة القرآن مجودة بشكل جيد.

في «سريانا» لا تحدث الامور بدون صلة او رابطة، كل شيء له صلته، شركات النفط مرتبطة بتحالف غير مقدس مع شركات تصنيع السيارات، وكذلك مع الدول المصدرة للنفط. فيلم «سريانا» يحترم عقل المشاهد، وهنا درجة عالية من الواقعية السياسية، فكل حدث فيه يمكن ان يقرأ على انه عنوان كبير في صحيفة يومية، وهو هنا يدعو المشاهد لقراءة الحدث، فكل شيء كما يقول شعار الفيلم «متصل». جورج كلوني، يبني على فيلمه الاول «ثلاثة ملوك» الذي قدمه بعد حرب الخليج الاولى، ويعيد تشكيل نفسه، بعيدا عن الدراما التلفزيونية «اي ار» وتقدمه كممثل جاد، ومن هنا فالجائزة التي حصل عليها في جوائز الاوسكار الاخيرة احتفاء بهذا التغير، ومع فيلمه الاخر الذي نأمل ان تكون لنا معه وقفة «تصبحون على خير وحظا سعيدا»، يخرج كلوني من عباءة «اي ار» الى ممثل جاد، مشغول بالقضايا الكبرى، السياسة، والارهاب، وتشكيل العالم بناء على «صورتنا».

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

جورج كلوني في لقطة من فيلم «سيريانا»

تداعيات

نهاد الموسى: سنديانةٌ باسقةٌ وظلالٌ وارفةٌ

هيثم سرحان*

■ لا تقتصرُ جهود الدكتور نهاد الموسى المعرفية على كتبه وبحوثه ومحاضراته التي طالما شهدتْ نقاشات وحوارات وردودَ أفعال مُتباينةً ومتواصلةً، وإنّما تمتدُّ لتشملَ المُجالسَات والمُسَايرات التي عَكف شيخنا على تكوينها حتى غدتْ تقليداً ثقافياً يُمثّلُ مساحةَ تشكُّلِ الرؤى والأفكارِ الخلاَّقة.

ويُقْصدُ بالمجالسات تلك النِّقاشات والحوارات التي تجري في مجلسه العامر الممتدُ مكاناً وزماناً ومعرفةً وتنوُّعاً حيثُ يُتاحُ للمرء الانخراطُ في «متاع عقليّ» مُثير وشائق ترافقه الحفاوةُ التي يغمرها الشيخ على مُجَالسيه وظلاله الوارفة التي تبعث في النَّفس الابتهاجَ والغبطة. ففي حضرَة الشيخ نهاد الموسى لا يشعرُ المُتلقّون بمركزية الشيخ وحضوره الطاغي وعلى العكس من ذلك تماماً يُدركُ المتلقون أنَّ الشيخَ يقيمُ توازناً خطابياً مُريحاً يشْعُرون معه أنه يقاسمهم حضوره البهيَّ وزاده الوافر.

ويتمتعُ الدكتور نهاد الموسى بحضور أخَّاذ ومختلف نظراً لما حازه من قُدرات معرفية هائلة وأدوات منهجية علمية تؤهلة لأنْ يكون واحداً من أبرز الأعلام العرب في القرن العشرين في مجال الدراسات اللسانية العربية ورائداً من روَّاد النهضة العربية المعاصرة××. ورغم ذلك فإنَّ شيخنا لا يهتمُّ بتجنيد «الأنصار» ولا يسعى إلى تحقيق النجومية ولا يتهافتُ على أنصاف الأدوار. إنَّ عارفيه الحقيقيين يعلمون أنه زاهدٌ في الأدوار التقليدية المتحققة في المواقع الوظيفية ذلك أنَّ جلَّ طموح شيخنا كامنٌ في أنْ يظلَّ على اشتباك دائم وتواصل مستمرٍ مع المعرفة وقضاياها المتنوعة.

وتفزعُ إلى مجلس الدكتور نهاد الموسى عُصبةٌ من الباحثين الذين يجدون ضالَّتهم ومآربهم في مقابساته ونخبةٌ من المريدين الذين يفرُّون من الدروس الجاهزة والمعطيات الراكدة والأداء التقليدي؛ بحثاً عن المُختلف والمُفارق ذلك أنَّ حوارات نهاد الموسى لا تقدمُ إجابات ونتائج مطمئنة لكنَّها تحفزُ المتلقين إلى إدامة النظر ومواصلة التَّقصي ومُساءلة المعطيات الثابتةَ والأحكام القارّة.

ونهاد الموسى شيخٌ صاحبُ طريقة مستقلة في مُقاربة الموضوعات وبحثها، وهو قادرٌ على دفع المتلقين إلى هذه الطريقة من التواصل، على نمط «محاورة بارمنيدس» المشهورة، حيث تتجسدُ براعته وفطنته في التلقي والتواصل لما يتمتع به من قدرة فائقة على إدارة الحوار وتوزيع الأدوار توزيعاً ذكياً يهدفُ إلى إشراك المتلقين واستدراجهم وصولاً إلى تحقيق المسؤولية المعرفية الجَمْعيةِّ، إضافةً إلى حرصه على عدم الاستقلال بالرأي والخطاب. لذلك نجده يستمع إلى مُحاوريه المتلقين وينُصتُ إليهم بطريقة مُدهشة ثمَّ إذا ما عاد يُمسكُ دفَّةَ الخطاب راحَ يُكثِّفُ الرؤى وينْسقُ ما تناثر منها فيخالُ المتلقون أنفسهم أمام نسَّاجٍ محترف يعرفُ مسالكَ الحكاية ويخبرُ دهاليزها.

والمدُققُ في خطاب الدكتور نهاد الموسى وأدائه في المُشافهة يكتشفُ أنَّ الرجلَ يُمارسُ عدداً من العمليات اللسانية المُتشابكة في الوقت نفسه، فهو يبحثُ في بنية المُعجم فاحصاً دوالَّه ومدلولاته، ويُحلِّقُ في بنية النظام المعرفي راصداً الشواهدَ المؤيدةَ والحججَ المُضيئةَ، ويُفكِّرُ في المرجعيات التي تنتمي لها القضية كاشفاً تمثُّلاتها، وهذا كلُّه يمنحُ خطابَ شيخنا فرادة وتميّزاً فالعملية اللسانية، في خطابه، تُماثلُ النَّقبَ عن الجواهر والكشفَ عن المُعْتم.

ولا يكتفي شيخنا بإيراد الخواطر الحاضرة والشواهد القريبة، ولا يركنُ إلى المعطيات الجاهزة بل إنه يبذل جهداً دقيقاً في تقصِّي الشوارد الغائبة والنماذج البعيدة والتَّطواف في المدارات المترامية مُستدلاً بالأدلة المنقولة ومُبرهناً بالأدلة المعقولة فيأتي خطابه حافلاً بالشواهد المتباينة نظماً وسرداً ومُكتنزاً بطرائف القول ولطائف النوادر وهذا ناجمٌ عن سعة اطلاعه وعمق تجربته إضافة إلى وعيه بعملية التواصل اللساني العميق الذي يتحقق بإثارة التساؤلات وحَفْز التفكير وعدم الركون إلى البداهة واليقين. فإذا تعرَّضَ لمسألة نحوية، مَثلاً، نجده يحفر في أخاديدها ويستشرف شواهدَها ويُحاججُ من قالوا بها موافقةً ومُخالفةً ثمَّ يَعْمدُ، بقدرة فائقة، إلى ربط العناصر الجزئية بدلالاتها النصية وكشف سياقاتها الثقافية من خلال استقراء حواشي المدونة وهوامشها والإحالة إلى علاماتها الحافة.

أما المُسايراتُ فتتمثَّلُ في ذلك التقليد الذي انتهجه الدكتور نهاد الموسى في جولات المشي التي يُنظِّمها في الجامعة الأردنية ليلاً. وتأتلفُ فيها كوكبةٌ من أولي الفضل والمعرفة التي اختارتْ الالتفاف حول الدكتور نهاد الموسى ناشدةً حوارات متنوعةً وجريئةً تنثالُ فيها المعاني وترتفع الدلالات لتعانق رؤوسَ أشجَار الصنوبر.

ولا أبالغ إذا قلتُ: إنَّ مسارات الدكتور نهاد الموسى المعرفية تكاد تكون مفتوحة ولا نهائية؛ فهو يتخذ لخطابه موقعاً متحركاً لا يعترف بالتخصص ولا الحدود الفاصلة مُنطلقاً من إيمان منهجي وبصيرة معرفية مُفادها: أنَّ حقولَ المعرفة يحكمَها التداخلُ والتشابك والتضافر. يحقُّ لمحبي نهاد الموسى ومريديه الاحتفالُ به إنساناً، ومُثقفاً عضوياً، وعالماً لسانياً بارزاً استطاع، خلال العقود الأربعة الأخيرة، أنْ يُراكمَ إنجازات رصينة. فطوبى لنهاد الموسى، في عيده الرابع والستين، وطوبى للأرض التي شهدتْ ولادته.

* شاعر وباحث أكاديمي من الأردن.

** الإشارة، هنا، إلى جهود اللغويين العرب: « أنيس فريحة، وإبراهيم أنيس، وإبراهيم مصطفى، ومحمود السعران، ومهدي المخزومي، وعبد القادر المهيري، ونهاد الموسى، وتمام حسان، وعبد القادر الفاسي الفهري، وعبد السلام المسدي، وأحمد المتوكل»، التي مثلَّتْ اتجاهاً بارزاً في مشروع الحداثة العربية.

الحب الفلسطيني في المقاهي الفلسطينية

زياد خداش*

مقهى زرياب

■ في مقهى زرياب، غالبا ما يبدأ الحب من نظرة، هو مقهى النظرات الاولى، ويا ليتها تبقى نظرات، فالاذكياء والعميقون يبقونها كذلك ويستمتعون بالانتظار والتخيل والتوهم، اما المتلهفون السطحيون العاديون فلا يصبرون، ويطلبون ما بعد النظرات، فيفاجأون بما ينتظرهم من العادي والمتعب، امرأة ضجرة تجلس وحيدة في اقصى اليسار، الشمس الشتوية، تكسر ملابسها وتغسل قلبها، الافق امامها ينتظر عينيها لتنتهكه باحزانها واوهامها ومتاعبها، الافق يتحمل كل متاعب الاخرين، يا له من تل صبور مسالم، لا يحرم احدا من ان يسقط عليه كل آلامه واحلامه، انه يعطينا الفرصة الشاسعة لان نتكىء على كتفه نبكي او نموت او نحلم او نسافر، نتخيل غيومه مستقبلنا، وشمسه الغائبة حزننا، وشجيراته محطاتنا، وهكذا الخ، الرجل ينتظر صديقه، لكن صديقه لا يأتي، فقد انشغل بحادث بسيط لسيارته الرخيصة، وتلتقي العيون، ويتحرك الرجل كعادته، وتبتسم المرأة:

ـ يا له من طقس رائع.

ـ نعم نعم.

ـ هل ممكن ان اقاسمك بضع قطرات من شمسك.

ـ طبعا تفضل.

وتبدأ رحلة الكذب،

ويا لها من رحلة مخيفة.

هو يعرف انها تكذب وهي تعرف انه يكذب، لكنهما يصدقان كذبات بعضهما، فالفراغ مخيف، مخيف.

يأخذ رقم جوالها، يتصل بها بعد منتصف الليل، يتنهد ويقول كاذبا: ما زلت اقرأ في رواية الحمامة، بينما هو في الحقيقة يتحسس جسده وينظر متعرقا الى فضائية اباحية.

تقول له: ما زلت افكر في كلامك، كلامك له رائحة عشب مريح تحت القدم العارية.

يهتز السرير بعد لحظات ويسيل الليل، وبعد عام واحد يصبحان عدوين، حيت تمر عنه في الشارع تتقيأ وحين يمر عنها هو يضحك ويخبر اصدقاءه، عن غبية سقطت في هوته ذات زرياب بعيد.

مقهى أوروبا

انه مقهى المرايا، انه ينبهني الى فوضى وجهي وضياع ملامحي، ويسلمني الى ضراوة جوعي.

النساء هنا مرهقات وحزينات وقليلات الكلام، فهن موظفات عائدات من مهنهن، جالسات لفترة قليلة في طريق العودة الى البيت، يلتقطن انفاسهن، وان وجدت امرأة مع رجل فاعرف فورا انهما متعبان من علاقتهما وانهما على حافة الفراق، المرايا تصطف بانتظام على يمينك حين تدخل كأنها جنود معادون محتلون يتأهبون لتفتيشك و التحقق من هويتك وانسانيتك، تصفعك المرايا وتصطادك بلا رحمة، تشتت هويتك، فلا تعود تعرف، ايهما انت: الذي في المرايا ؟ ام الذي في المقهى؟ اضطر في احيان كثيرة الى العودة الى المقهى لأسحبني من المرايا، اجرجرني امام المارة، واعود الى البيت لأجمعني وانام.

مقهى موكارينا

هناك يأتيني قويا وغادرا وهم الجمال والحصانة الداخلية، احس اني خارج لتوي من اجتماع مع ذهن العالم، الذهن الذي يخطط مسيرنا ويقترح نهاياتنا وبداياتنا. هنا استغني عن كل الاصدقاء، لا اعود اعرفهم، احب القراءة في هذا المقهى، محمد النادل الوسيم يعرف كم انا بحاجة الى الموسيقى لأقرأ واحيانا اكتب، فيشعل المكان انغاما خافتة، احسها احيانا شموعا لا انغاماً، يعطيني ابتسامات صغيرة محبة تفحص مدى انسجامي، فيسعد هو حين يراني نائبا في الجدار او طائرا في الفضاء الصغير، حين تأتي امرأة لتجلس على طاولة بجانبي مع صديقها او صديقتها ويصخب المكان بالثرثرات تتعالى داخلي صيحات الكبرياء و النشوة فيشتد حنيني الى هناك ويتوهج رنين العالم البدائي داخلي، كأني في سباق معهم، ايهما سيصل اولا الى الجبل، الجبل السحري، جبل توماس مان، انا واحلامي ونسور صمتي ووحشتي؟ ام هم بكلاب اكتظاظهم وجثث افكارهم و كلامهم؟ ومضغهم السريع للهمبرغر؟ لا احتاج الحب هنا، لا احتاج النساء، النساء هنا فائضات عن حاجاتي بل ومزعجات ولاهيات عن قفزات ذهني، ومملات وساحبات لطاقة الحياة والابداع، وفكرة الحب تبدو هنا اكلة ساندويش فلافل ساخن، بعد اكلة مسخن دسمة.

مقهى الانشراح

هنا يحلو لي البكاء الصامت، هنا اتلقى عادة خبر رحيل الاصدقاء وهنا ابكيهم واتذكرهم، هنا تلقيت خبر رحيل مروان برزق وهنا بكيت رحيل حسين البرغوثي وجمال يونس وعزت الغزاوي، هنا يحلو لي البكاء الصامت.

هنا احب الاصدقاء، حبا مخلوطا بطعم الزعتر.

مقهى ركب

احب من هنا ان ارقب تفاصيل حركات المارة، نساء ورجالا، التفاصيل التي لا ينتبه لها احد، صوت ضحكة مكبوتة لامرأة محجبة، عرج صغير في قدم مدير عام يمشي مع ابنه، حزن سيدة فقيرة تقف امام محل ملابس فاخرة، تنهيدة شهوة حارقة في وجه مراهق، اراقب المطر وهو يمارس الحب مع قبعات النساء وحقائبهن الصغيرة، طفل صغير يقع فتنحني امه او اخته والمطر يشوش نظام رموشها، وهي ما بين السعادة والضيق، تحث صغيرها على النهوض والسرعة. ليس هناك اجمل من امرأة تركض هاربة من مطر تعرف هي انه يحبها وتحبه، تركض لتستمتع بمطاردته لها، ويستمتع هو بهربها منه. هنا في ركب يختلط النظر السياحي بقهوة غاية في العذوبة، تخرج من يد عبد علوي النادل المبتسم دائما، هنا امارس الحب الفموي من وراء زجاج، مع امرأة تدعى مطر رام الله، انه الانثى التي تجرب ان تكون ذكرا، انه الذكر الذي يحب ان يتقنع بقناع انثى ويتحول الى ريح مبلولة. لمطر رام الله رائحة الدهشة الباكية لصورة شعرية جديدة تخطر فجأة على بال شاعر مضطرب، عانى من عسر في الصور منذ سنين. الحب في ركب لا غيرة فيه على احد، لا توتر لا مستلزمات، مثل قهوة علوي، هادئة ترتشف شفاهي وتمتص قلبي، وصامتة وموشكة على النهاية تقعد في روحي ولا تغادر. الحبيبة التي امامك في ركب لا تغضب منك حين لا تنظر في وجهها وحين تنساها وتكف عن القول لها : اني احبك اكثر من المطر، انها تعذرك لانك واقع في مصيدة تفاصيل رام الله التي لا تقاوم، كذلك الحبيب، لا يستغرب ابدا ولا يفاجأ بعنق حبيبته وهو ينحني بعيدا عنه. هنا يأخذ الحبيبان اجازة صغيرة من نفسيهما. يتوقف كلام الحب والنظرات، ويبدأ كلام رام الله.

مقهى سنغريا

المصدومات من نهاية علاقة طويلة و محمومة يهرعن الى هنا لاجئات الى دفء المكان وزجاجه المعتم قليلا واحترام النادلين الفقراء للخصوصيات، في هذا المقهى الحميم المطل الموازي للشارع الموار بحركة السيارات، غالبا ما تجد نساء جميلات غير مبتسمات يجلسن مع بعضهن البعض، يفضفضن عن احزانهن، يتوعدن الخائنين الرجال بحرب لا تحدث ابدا، لان سنة الحياة الغريبة غير العادلة تقرر دائما انتصار الرجال، انه مقهى المتروكات، المجتمعات الحائرات، المقتربات من بعضهن اقترابا يشبه رغبة في كسر قانون الغريزة وحرفها عن مسارها الملل الكريه.

مقهى كتكات

بعد جولة الجنس الدموي الاولى يحلو القدوم الى هنا، انه مقهى الاستراحات ما بين جولة جنس واخرى، يا له من مقهى فاخر وزجاجي في كل شيء حتى في نظرات ناديليه، وفي ابتسامات الشخصيات المرسومة في اللوحات المعلقة، هيا نخرج قليلا نشرب القهوة ونتشمس، يقول المتوحش للمتوحشة، ولا يصلح لذلك سوى كتكات؛ حيث شمس رائعة تخرمش وجوه الجالسين واجسادهم، بعد قليل ستشب نار جديدة، في الجسدين المستريحين، سينز دخان خفيف من المسامات، دخان الرغبة الماكر، ستقول المتوحشة الجميلة والام لطفلين و القادمة من الشمال البعيد : هيا نعود الى غياب الشمس، اشتقت الى رائحة بطنك. يبتسم المتوحش البدوي الذي ترجع اصوله القريبة الى خربة في الجنوب، والذي يعمل مديرا عاما في احدى المؤسسات الكبرى، والحاصل على علامة خمسين في امتحان الثانوية، الذي لم يزر مؤسسته منذ شهرين، ينهض الشمال والجنوب، يذهبان الى جولة جنس اخرى، يعودان بعدها الى الشمس الجاهزة، يهمس الجنوبي، لصاحب المقهى : كيف تقنعون الشمس بالمبيت هنا؟ ام انتم تستأجرونها؟ يضحك صاحب المقهى، ويقول مجاملا للجنوبي: كل شخص يأتي هنا يحضر معه شمسه، انها شمسك يا سيدي، وشمس متوحشتك.

مقهى ستونز

اذا اردت ان تتعرف على صديقات اصحابك فتعال هنا، فالاصحاب هنا طيبون، حين تهاتف صديقا لك : يقول لك فورا دون ان يعي مخاطر دعوته: تعال انا مع فلانة وفلانة وفلانة، اركض فورا الى هناك، فصديقك المسكين ينسى هنا انك خطير جدا على صديقاته، ليس لانه يثق بك، بل لان المقهى نفسه يسبب للجالسين فيه فقدان ذاكرة خفيفاً، ودواراً صوفياً حلواً، وان كنت انت من اصحاب النوايا الشهوية، فاعتقد فورا ان من السهولة الخروج برقم جوال احداهن، وسط ذهول الصديق الذي سيندم على دعوتك، لن يتعلم الصديق الذي خدعته انت، وسلبت منه امرأة او اثنتين كما تسلب له قميصه الصيفي المكوي جيدا. ياه هل النساء قمصان ؟؟ هذا موضوع آخر، ان كل رجل يدخل هذا المقهى مع سرب نساء يقع دائما في فخ دعوة الاصدقاء الخبثاء، انها طيبة المكان التي تنقل عدواها اليك فتصبح طيبا جدا ونورانيا لا تعترف بالشر او اللصوصية،.

ملاحظة مهمة جدا لأصحاب ومرتادي المقاهي المذكورة

دوافع هذا النص هو هواجس خاصة اساسها علاقة فردية قد تكون مرضية او فنية او شيء آخر للكاتب مع المقاهي وهي لا تلزم احدا بتصديق ما اكتب وما اروي، فقد يعترض احدهم قائلا انه رأى في موكارينا حبا نظيفا وقويا ودائما، وقد يصيح البعض: نحن رأينا في كتكات نساء ضجرات وهكذا..

اقول لهؤلاء: يا هؤلاء انتم لستم انا وانا لست انتم.

* كاتب من فلسطين